محمد طاهر باشا نور

مثل نادر من المُثُل العُليا فى كرم الخلق وعفة الضمير وصدق النية ؛ استأثر به الله وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إلى كفايته ورعايته؛ فكان الأسى على فقده شاملاً يتبين فى كل وجه ، ويحز فى كل قلب ؛ والمصيبة فى الأخيار النوابغ مصيبة الانسانية جماء ، لأن كمالها قائم على كمالهم ، وتقدمها سائر على أعمالهم ، وسلامها معقود بما ينبعث عن فِطَرِهم النبيلة من إلهام الجمال والخير والحق . كان رحمه الله على كرم أبوته وأمومته ، وشرف منصبه وأسرته ، متواضع النفس لين الجانب ؛ وكان على هذا التواضع وذلك اللين أبِيّ الطبع شديد الأنفة ، لا يطمئن على مكروه ولا يصبر على غضاضة . ومن العجيب النادر أنه استطاع على سلامة قلبه من النفاق ، وبراءة لسانه من الملق ، ونزاهة نفسه عن الخنوع ، أن يصعد فى مناصب الدولة الخطيرة صعود الشمس فى الفلك ، فلم تعقه مكاره العزة والإباء عن بلوغ الغاية منها ؛ وفى ذلك ولا ريب نجاح للكفاية فى استقلالها ، وانتصار للحق فى ذاته

لم يكن طاهر باشا رجل حزب ، ولكنه كان رجل أمة . حصر جهده فى عمله ، وحدد عمله بواجبه ، وانطوى قلبه منذ نشأ على صراحة القانون ونزاهة القضاء ونصاعة العدل ؛ فكان فى كل عمل تولاه مظهراً لهذه الأخلاق وموئلاً لأصحاب الحق

وفى سنة ١٩٢٤ كان زعيم الأمة الخالد سعد باشا زغلول رئيساً للحكومة ، وكان رضى الله عنه حريصاً على أن يقيم حكومته على الاخلاص فى العمل والنزاهة فى التصرف والفناء فى الواجب ؛ فخلا يومئذ منصب النائب العمومى ، وهو ألصق المناصب القضائية بسلامة الناس ، لأنه يد القانون وعين العدالة ولسان الحق ؛ فدار الزعيم الجليل بعينه وقلبه فى رجال القانون وكبار الدولة يتوسم صفات النائب التى يريدها فى الوجوه ، ويتعرفها من الماضى ، ويتجسسها من الأسئلة ، فلم يقع اختياره الموفق إلا على طاهر نور مدير الادارة القضائية ، وهو من غير العاملين معه ولا المقربين إليه ولا المتصلين به . فقام النائب المختار بما حمل من أعباء العدل على ما تحققه فيه الزعيم من الفطانة والأمانة والذمة والحكمة ، لا يضطرب فى مهب الأهواء ، ولا يسخر سلطانه لشهوات الرؤساء ، ولا يعرّض أخلاق الناس وأعراضهم لهوان السياسة ، حتى طغى فى مصر الحكم وفشا فى الناس الظلم ، فلم يستطع فى ذلك العهد البغيض أن يوفق بين جور الحاكم وعدل القانون ، فنقل وكيلاً لوزارة الحقانية سنة ١٩٣٠ ، وظل فيه على عهد الناس به حتى قبضه الله إليه . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض أمته وأسرته منه خير العوض .

الزيات

الأدب والأديب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

إذا اعتبرتَ الخيالَ فى الذكاء الانسانى وأوّليتَه دِقّةَ النظر وحُسْنَ التميز ، لم تجده فى الحقيقة إلا تقليداً من النفس للألوهيّة بوسائل عاجزةٍ منقطعة ، قادرةٍ على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق

وهذه النفسُ البشريةُ الآتيةُ من المجهول فى أول حياتها ، والراجعةُ إليه آخرَ حياتها ، والممدودَة فى طريقه مدةَ حياتها ، لا يمكن أن يتقررَ فى خيالها أن الشىء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهى ؛ فهى لا تتعاطى الوجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فُرِغ منه فما يُبْدَأ ، وتمّ فما يُزاد ، وخلدَ فلا يَتحوّل ؛ بل لا تزال تَضرِب ظنها وتُصرّف وهمها فى كل ما تراه أو يَتَلجْلج فى خاطرها ، فلا تبرح تَتلمَّسُ فى كل وجود غيبا ، وتكشف من الغامض وتزيد فى غموضه ، وتجري دائباً على مجاريها الخيالية التى تُوثق صلتها بالمجهول . فمن ثم لا بدّ فى أمرها مع الموجود مما لا وجود له ، تتعلّق به وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بد فى كل شىء – مع المعانى التى له فى الحق – من المعانى التى له فى الخيال ؛ وهاهنا موضعُ الأدب والبيان فى طبيعة النفس الانسانية ؛ فكلاهما طبيعىٌ فيها كما ترى

وإذا قيل الأدب ، فاعلم أنه لا بد معه من البيان ؛ لأن النفس

تخلُق فتُصوِّر فتُحسِن الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب — في مَعْرِضه وجمال صورته ودقّة لحمته، بل يَنزلُ البيانُ من المعنى الذي يَلْبسه منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة، إذا كانت الثمرةُ وحدها قبل النضج شيئاً مُسمّى أو متميزاً بنفسه، فإن تكونَ بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً، وما بُدٌّ من أن تستوفي كمالَ عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسئلة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيتَ في الثمرة ونضجها؛ فإن البيانَ صناعةُ الجمال في شيء جماله هو من فائدته، وفائدته من جماله؛ فاذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير؛ وصار الفرقُ بين حالَيْه كالفرق بين الفاكهة إذ هي بابٌ من النبات، وبين الفاكهة إذ هي بابٌ من الخمر. ولهذا كان الأصلُ في الأدب البيانَ والأسلوبَ في جميع لغات الفكر الانساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الانسانية

فالفرضُ الأول للأدب المبين أن يَخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة، وأن يُلقي الأسرارَ في الأمور المكشوفة بما يتخيّل فيها، وبردَّ القليلَ من الحياة كثيراً وافياً بما يُضاعِفُ من معانيه، ويترك الماضيَ منها ثابتاً قاراً بما يخلّد من وصفه، ويجعلَ المؤلم منها لذاً خفيفاً بما يَبُثُّ فيه من العاطفة، والمملولَ ممتعاً حُلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة. ومَدارُ ذلك كلّه على إيتاء النفس لذةَ المجهول، التي هي في نفسها لذّةٌ مجهولة أيضاً؛ فان هذه النفس طُلَعَةٌ متقلّبة، لا تبتغي مجهولاً صِرْفاً ولا معلوماً صرفاً، كأنها مُدْرِكة بفطرتها أنْ ليس في الكون صريحٌ مُطلَقٌ ولا خفيٌّ مطلق؛ وإنما تبتغي حالةً ملائمة بين هذين، يثور فيها قَلَقٌ أو يسكن منها قلق

وأشواقُ النفس هي مادّة الأدب؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وَضَعَ المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متّصلاً بسرِّ هذه الحياة فيكشفُ عنه أو يومئ إليه من قريب، أو غَيَّر للنفس هذه الحياةَ تغييراً يجيء طباقاً لغرضها وأشواقها؛ فانه كما يَرْحَل الانسانُ من جوٍّ إلى جوٍّ غيره، ينقله الأدبُ من حياته التي لا تختلف إلى حياةٍ أخرى، فيها شعورُها ولذّتها وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمان؛ حياةٍ كَمُلَتْ فيها أشواقُ النفس، لأن فيها اللذّاتِ والآلامَ بغير ضرورات ولا تكاليف. ولعمري ما جاءت الجنةُ والنارُ في الأديان عَبَثاً؛ فإن خالق النفس بما ركّبه فيها من العجائب، لا يحكُمُ العقلُ أنه قد أتمَّ خَلْقها إلا بخلق الجنة والنار معها؛ إذ هما الصورتان الداعتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة إن هي استقامت مُسدَّدة أو انتكست حائلة

وقد صح عندي أن النفسَ لا تتحقّق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتُحسُّ وحدةَ الشعور ووحدةَ الكمال الأسمى — إلا في ساعاتٍ وفتراتٍ تنسَلُّ فيها من زمنها وعيشها وتناقضها واضطرابها إلى (منطقة حياد) خارجةٍ وراء الزمان والمكان؛ فاذا هبطتها النفس، فكأنما انتقلتْ إلى الجنة واستروحت الخلد؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا في أربعة: حبيبٍ فاتنٍ معشوقٍ أُعطِيَ قوةَ سِحْرِ النفس، فهي تَنسى به؛ وصديقٍ محبوبٍ وفيٍّ أُوتيَ قوةَ جَذْبِ النفس، فهي تنسى عنده؛ وقطعةٍ أدبية آخذة، فهي ساحرةٌ كالحبيب أو جاذبةٌ كالصديق؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائع، ففيه من كل شيء شيء

وهذه كلُّها تُنسي المرء زمنَه مدةً تطول وتقصر؛ وذلك فيها دليلٌ على أن النفس الانسانية تُصيب منها أساليبَ روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزليّ في لحظاتٍ من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية. ومن ثم نستطيع أن نقرِّر أن أساسَ الفنّ على الاطلاق هو ثورةُ الخالدِ في الانسان على الفاني فيه؛ وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير — هو معنى الأدب وأسلوبه

ثم إن الاتّساقَ والخيرَ والحقَّ والجمالَ — وهي التي تجعل للحياة الانسانية أسرارَها — أمورٌ غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات؛ فمن ذلك يأتي الشاعرُ والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجليلة عالمَها الذي تكون طبيعيةً فيه، وهو عالمٌ أركانه الاتساقُ في المعاني التي يجري فيها؛ والجمالُ في التعبير الذي يتأدّى به؛ والحقُّ في الفكر الذي يقوم عليه؛ والخيرُ في الغرَض الذي يُساق له؛ ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة، ولا معيارَ أدقَّ منها إن ذهبتَ تعتبره بالنظر والرأي؛ ففي عمل الأديب تخرجُ الحقيقةُ مضافاً إليها الفن، ويجيء التعبيرُ مَزيداً فيه الجمال، وتتمثّل الطبيعةُ الجامدةُ خارجةً من نفسٍ حيّة، ويظهر الكلامُ وفيه رقّةُ حياةِ القلب وحرارتُها وشعورُها وانتظامها ودقّتُها الموسيقيّ؛ وتلبس الشهواتُ الانسانيةُ شكلها المهذّب لتكون بسببٍ من تقرر المثل الأعلى، الذي هو السرُّ في ثورة

الخالد من الانسان على الفانى ، والذى هو الغاية الأخيرة من الأدب والفن معاً ؛ وبهذا يهب لك الأدب تلك القوة الغامضة ، التى تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارة من خلال نفسك ، وتحس الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها . وذلك سر الأديب العبقرى ؛ فانه لا يرى الرأى بالاعتقاب(١) والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنما يحس به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلهَمه إلهاماً ؛ وليس يؤاتيه الالهام إلا من كون الاشياء تمر فيه بمعانيها وتعبره كما تعبر السفن النهر ، فيحس أثرها فيه فيلهم ما يُلهم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هى النافذة من خلاله

ولو أردت أن تعرف الأديب من هو ، لما وجدت أجمع ولا أدق فى معناه من أن تسميه الانسان الكونى ، وغيره هو الانسان فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصية الكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدل السماء بما فى صناعته من الوحى والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها ، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذى لاحد له ، والاتساع الذى كل آخر فيه لشىء ، أول فيه لشىء

وهو انسان يدله الجمال على نفسه ليدل غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى ، وأضيف إليه فى إحساسه قوة إنشاء الاحساس فى غيره ؛ فأساس عمله دائماً أن يزيد على كل فكرة صورة لها ، ويزيد على كل صورة فكرة فيها ؛ فهو يبدع المعانى للاشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ، ويبدع الأشكال للمعانى المجردة فيوجدها هى فى الحياة ، فكأنه خُلِق ليتلقى الحقيقة ويعطيها الناس ويزيدهم فيها الشعور بجمالها الفنى . وبالأدباء والعلماء تنمو معانى الحياة كأنما أوجدتهم الحكمة لتنتقل بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكون العظيم يمر فى أدمغتهم ليحقق نفسه

ومشاركة العلماء للأدباء توجب أن يتميز الأديب بالأسلوب البيانى ، إذ هو كالطابع على العمل الفنى ، وكالشهادة من الحياة المنوهة لهذا الانسان الموهوب الذى جاءت من طريقه ، ثم لأن الأسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الأدراك ، كأن الجمال يقول بالأسلوب : إن هذا هو عمل فلان

وفصل ما بين العالم والأديب ، أن العالم فكرة ، ولكن الأديب فكرة وأسلوبها ؛ فالعلماء هم أعمال متصلة متشابهة يشار إليهم جملة واحدة ، على حين يقال فى كل أديب عبقرى : هذا هو ، هذا وحده . وعلم الأديب هو النفس الانسانية بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ، ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الأسرار

وإذا رأى الناس هذه الانسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه وأوصافه ، فالأديب العبقرى لا يراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها ؛ وكأنما أمرها فى (معمله) ، أو كأن الله — سبحانه — دعاه ليرى فيها رأيه . . . . وبذلك يجىء النابغ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالموافقة واقرار الحكمة ، وأساسه على كل هذه الأحوال النقد ثم النقد ، ولا شىء غير النقد ، كأن القوة الأزلية تقول لهذا الملهَم : أنت كلمتى ، فقل كلمتك . . . .

* * *

وترى الجمال حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ، ولكن الحس به يكبر فى أناس ويصغر فى أناس ؛ وهاهنا يتأله الأدب ، فهو خالق الجمال فى الذهن ، والممكن الأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ، وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الانسانية باضافة الصور الفكرية الجميلة اليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة ، وصولة الغريزة ، وغرارة الطبع الحيوانى

وإذا كان الأمر فى الأدب على ذلك ، فباضطرار أن تتهذب فيه الحياة وتتأدب ، وأن يكون تسلطه على بواعث النفس دربة لاصلاحها وإقامتها ، لا لافسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة ؛ وباضطرار أن يكون الأديب مكلفاً تصحيح النفس الانسانية ، ونفى التزوير عنها ، واخلاصها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الانسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق !

وإنما يكلف الأديب ذلك لأنه مستبصر من خصائصه المميز

(١) الاعتقاب إطالة النظر وكد الفكر

وتقدم النظر وتسقُّط الالهام ، ولأن الأصلَ في عمله الفنيّ ألا يبحث في الشيء نفسِه ، ولكن في البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سرِّه ، ولا يُعنيَ بتركيبه ، بل بالجمال في تركيبه ، ولأن مادة عمله أحوالُ الناس ، وأخلاقُهم ، وألوان معايشهم ، وأحلامُهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويهم ومَراشِدهم ، يُسدِّد على كل ذلك رأيه ، ويُجيل فيه نظره ، ويخلطه في نفسه ، ويُنفِذُه من حواسه ، كأنما له في السرائر القبضُ والبسط ، وكأنه وليَ الحكم على الجزء الخفيّ في الانسان ، يقوم على سياسته وتدبيره ، ويَهديه إلى المثل الأعلى . وهل يُخلَق العبقريُّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يَقدر على الذي هو أكملُ والذي هو أبدع ، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا ينخذل فيستمرّ دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لا نهاية لهما ؟

فالأديب يُشرفُ على هذه الدنيا من بصيرته ، فاذا وقائعُ الحياة في حذْو واحد من النزاع والتناقض ؛ وإذا هي دائبةٌ في مَحْق الشخصيةِ الانسانية ، تاركةً كل حيٍّ من الناس كأنه شخصٌ قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فاذا تلجلج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفسُ العاليةُ إلى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة ، وقامت حارسةً على ما ضيع الناس ، وسُخرتْ في ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأبَى منه ولا يستوي لها أن تمض فيه ، ونقلت الانسانيةُ كلَّها ووُضعت على مجاز طريقها أين توجهتْ فتأكَّد الأمرُ فيها ، ووُصِلَ بها ، وعلمت أنها من خالصةِ الله ، وأن رسالتها للعالم هي تقريرُ الحب للمتعادين ، وبسطُ الرحمة للمتنازعين ؛ وأن تجمعَ الكلَّ على الجمال وهو لا يختلف في لذته ؛ وتصِلَ بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرّق في موعظتها ؛ وتُشعرَهم الحكمة وهي لا تتنازعُ في مناحيها . فالأدبُ من هذه الناحية يشبه الدين ، كلاهما يُعينُ الانسانيةَ على الاستمرار في عملها ، وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غير أن الدين يعرضُ للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل ، والدين يوجه الانسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ، وذلك وحيُ الله إلى المَلَك إلى نبيٍّ مختار ، وهذا وحي الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار

فان لم يكن للأديب مثلٌ أعلى يجهدُ في تحقيقه ويعمل في سبيله ، فهو أديبُ حالةٍ من الحالات ، لا أديبُ عصر ولا أديبُ جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصرٍ هم الأرقام الانسانية التي يُلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته . .

ولا يخدعنّك عن هذا أن ترى بعضَ العبقريين لا يُـؤَدِّي في أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل ، يتغلغلُ فيها ، ويتملأُ بها ، ويكون منها على ما ليس عليه أحدٌ إلا السَّفِلة والحِشوةَ من طَغام الناس ورعاعهم ؛ فان هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهي ، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ؛ وكثيراً ما تكون الموعظةُ برذائلهم أقوى وأشدَّ تأثيراً مما هي في الفضائل ؛ بل هم عندي كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهيُ أقوى مما يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظةَ الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلَى الشوَّهَ المتحطِّم الذي ينهاك بصورته أن تكون مثله . ولهذه الحقيقة القوية في أثرها — حقيقةِ الأمر بالنهي — يعمد النوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه أو الاحالةِ في الحادثة التي يصفونها : فينتهي الراهب التقيُّ في القصة ملحداً فاجراً ، وترتدُّ المرأة البغيُّ قديسة ، ويرجع الابن البرُّ قاتلاً مجنوناً جنونَ الدم ؛ إلى كثير مما يجري في هذا النسق ، كما تراه لأناطول فرانس ، وشكسبير وغيرهما ، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شرّ ، ولكنه أسلوبٌ من الفن ، يقابله أسلوبٌ من الخلق ، ليبدع أسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي أن ينحصر ولا يتعدى ، لأنه وصفٌ لأحوال دقيقةٍ طارئةٍ على النفس ، لا تعبيرٌ عن حقائق ثابتةٍ مستقرّةٍ فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك أدبه ، أن يعلوَ بالرذيلة . . . في أسلوبه ومعانيه ، آخذاً بغاية الصنعة ، متناهياً في حسن العبارة ؛ حتى يصبح وكأن الرّذائلَ هي اختارت منه مفسرَها العبقريَّ الشاذَّ الذي يكون في سموّ فنه البياني هو وحده ، الطَّرفَ المقابلَ لسموِّ العبارة عن الفضيلة ؛ فيصنع الالهامُ في هذا وفي هذا صنعه الفنيّ بطريقةٍ بديعةِ التأثير ، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليه ؛ كأن منهما إنساناً صار ملكاً يكتب ، وإنساناً عاد حيواناً يكتب . . .

وإذا أنت ميلت بين رذيلة الأديب العبقري في فنه ، ورذيلة

الأديبِ الفشل الذي يتشبه به — في التأليف والرأي والمتابعةِ والمذهب — رأيت الواحدةَ من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف: هذا دموعه ألمه، وذاك دموعه ألمه وشعره. وفي كتابة هذه الطبقة من المقربين خاصةً يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبي، وأن اللذة به هي علامة الحياة فيه، إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية، شاهدُها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست في الحقيقة إلا نكتةً نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها، وأنها على ذلك هي أيضاً مسئلةٌ من مسائل الانسانية مطروحةٌ للنظر والحل، بما فيها من جمال الفن، ودقائق التحليل

* * *

واللذةُ بالأدب غير التلهي به واتخاذه للعَبَث والبطَالة فيجيء موضوعاً على ذلك فيخرج إلى أن يكون مَلْهاة وسُخفاً ومَضْيَعَة؛ فان اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالأساليب الشعرية التي في النفس، وهي الأصل في جمال الأسلوب؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعةٌ كلُّه كسائر ما ركب في طبيعة الحي إذ يحس الذوقُ لَذَّةَ الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعيّ استمراءُ التغذية لبناء الجسم وحفظِ القوة وزيادتها. أما التلهي فيجيء من سخف الأدب، وفراغ معانيه، ومؤاتاته الشهوات الخسيسةَ، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة؛ وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الانسانية، بل أدبَ فئة بعينها وأحوالها؛ فان أديب صناعته أو أديبَ جماعته، غيرُ أديب قومه وأديبِ عصره: أحدهما إلى حدٍّ محدود من الحياة، والآخر عملٌ جامع مستمرٌّ متفنِّن، لأن عمله الأدبي هو وجوده، وكل شيء في قومه لا يبرحُ يقول له: اكتبْ...

ومن الأصول الاجتماعية التي لا تتخلَّف، أنه إذا كانت الدولةُ للشعب، كان الأدب أدبَ الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوانِ عيشه، وزَخَر الأدب بذلك وتنوَّع وافتَنّ وُبني على الحياة الاجتماعية؛ فان كانت الدولةُ لغير الشعب، كان الأدبُ أدبَ الحاكمين وُبني على النفاق والمداهنة والمبالغةِ الصناعية والكَذِب والتدليس، ونَضَبَ الأدب من ذلك وقلَّ وتكرَّر من صورةٍ واحدة؛ وفي الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كلِّ من حَوله إلى الاحساس بالكون وجماليه وأسراره في كل ما حَوله. أما الثانية فلا يُحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه، فيصبح أدبه أشبهَ بمسافةٍ محدودةٍ من الكون الواسع، لا يزال يذهب فيها ويجيءُ حتى عِلَّ ذهابه ومجيئه

والعَجَب الذي لم يتنبَّه له أحدٌ إلى اليوم من كل من درسوا الأدبَ العربي قديماً وحديثاً، أنك لا تجد تقريرَ المعنى الفلسفي الاجتماعيّ للأدب في أسمى معانيه إلا في اللغة العربية وحدها، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم!

فاذا أردتَ الأدب الذي يقررُ الأسلوبَ شرطاً فيه، ويأتي بقوّة اللغة صورةً لقوة الطباع، وبعظَمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق، وبرقّة البيان صورة لرقة النفس، وبدقّته المتناهية في العمق صورةً لدقّة النظرة إلى الحياة؛ ويُريك أن الكلامَ أمةٌ من الألفاظ عاملةٌ في حياة أمةٍ من الناس، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخية، مُحْكِمَةً لها الأوضاع الانسانية، مشترطةٌ فيها المثلَ الأعلى، حاملةٌ لها النور الالـٰهيّ على الأرض...

وإذا أردتَ الأدبَ الذي يُنشئ الأمة إنشاءً سامياً، ويدفعها إلى المعالي دفعاً، ويردُّها عن سَفَاسِف الحياة، ويوجِّهها بدقّة الابرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة، ويمدُّها في أغراضها التاريخية العاليةِ تمديدَ القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرِّر المحكم، ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسَها حزماً وأبصارَها نظراً وعقولَها حكمة، ويَنْفُذُ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية...

... إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت القرآنَ الحكيم قد وَضَعَ الأصلَ الحيَّ في ذلك كله. وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدَّساً، وفَرَضَ هذا التقديس عقيدة، واعتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لن تتغير؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يحذُوا بالأدب حَذْوه، وحسبوه ديناً فقط، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخٍ محتَضَرٍ بالعلل القاتلة، ذاهبٍ إلى الفناء الحتم!

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه، لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ واحد هو هذا: إن الأدب هو السموُّ بضمير الأمة

ولا يُستخرج منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا: إن الأديب هو مَن كان لأمته وللُغتها في مواهبِ قلبه لقبٌ من ألقاب التاريخ...؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي